3 ـ يرى الحكيم أن المسرح يحب أن يكون فكرياً، يجري الصراع فيه بين قضايا فكرية «منها تنبع رؤيا الحياة، وتتكون ملامح الشخصية»[25].

ولهذا فإن الحكيم يؤكد أنه لا يكتب بعض مسرحياته لتمثل وإنما يكتبها لتقرأ فحسب[26]، لأنها تعتمد على الجدل الفكري الذي قد يمتع الذهن، ولكنه لا يمتع المشاهدين على الإطلاق، لأن الشخصيات التي يراها المشاهدون أمامهم لا تحمل مشاعر وعواطف نابضة بالحياة، وإنما تحمل أفكاراً حامدة جافة، وهذا باعتراف الحكيم نفسه في مقدمة «بجماليون» حيث يقول: إن الناس ليتأثرون دائماً بالعواطف التي يحسونها في حياتهم الواقعية، كالحب والغيرة، والحقد والانتقام، والعدالة، والظلم، والصفح والإثم... لكن ماذا هم يشعرون أمام صراع بين الإنسان والزمن وبين الإنسان والمكان، وبين الإنسان وملكاته؟ هذه الأشياء المبهمة والأفكار الغامضة أتصلح لهز المشاعر بقدر ما تصلح لفتق الأذهان؟[27].

ومفهوم الحكيم للمسرح على هدا النحو أدى إلى نتيجة حتمية، وهي أن الشخصيات تكون مجرد حاملات أفكار لا غير، وليس لها كيان مستقل بها، أو أبعاد وصفات وألوان خصوصية تميزها.

وبعد، فإنه من الإنصاف أن نشير إلى أن الحكيم قد نجح نوعاً ما في رسم بعض شخصيات رواياته ـ بعكس ما رأينا في مسرحياته، وخاصة شخصية المرأة المتمردة على المجتمع الذي لا يقدر عواطفها في «الرباط المقدس»؛ فهي زوجة طبيب لا يهتم بشيء سوى عمله وواجبه خارج البيت، ومطالعة الكتب داخله. وتلتجيء هذه المرأة إلى «راهب الفكر» ليساعدها في حل مشكلتها التي أصبحت تؤرقها، ولكنه لا يفهمها، ويتهمها بالخروج على الأخلاق السامية، وحينئذ لا تجد بداً من السقوط والاعتراف بذلك في «كراستها الحمراء» متحدية «راهب الفكر» وأفكاره، وزوجها وواجبه، والمجتمع ومواضعاته في وقاحة ورعونة.

فهذه المرأة أقرب ما تكون إلى الشخصية البشرية التي «نحس فيها حرارة